كوين عبده أبو أنطون

جامعة القدّيس يوسف- فرع زحلة

هجرةٌ إلى وطني

الحديقة الموصوفة من نسج خيالي، استوحيتُ معظم تفاصيلها من حديقة "La vie en rose" الواقعة في الخنشارة.

ملاحظة: إنّ الصّورتين ملتقطتان بهاتفي الخاصّ.

انهزمتِ الشّمسُ مجدّدًا، بعدَ أنْ تآمرَتْ عليها عقاربُ السّاعةِ، و هربَ ضجيجُ المدينةِ إلى كهوفِ السّكينةِ. في شوارعِ الغربةِ، خريفٌ قاسٍ سرقَ منّي الحدائقَ، و فراغٌ يخترقُ حواجزَ سلامي، و يذكّرُني أنّني غريبةٌ في بلادٍ حسبْتُها وقتذاك، طوقَ النّجاةِ. في غرفةِ هذا الفندقِ، الواقعِ في أهمِّ شوارعِ "لندن"، ربّتَ السّأمُ على كتفيَّ، و أغرقني الرّدى في بحرٍ من التّساؤلاتِ التي دارَتْ بجنونٍ في فلكِ الغرفةِ: "من أنتِ؟ و إلى أيِّ مكانٍ تنتمين، أيتّها الغريبةُ؟"

ما هي إلّا ثوانٍ حتّى قرّرْتُ التّحرّرَ من قيودِ الواقعِ، فرميتُ بهيكلي الضّعيفِ على وسادةٍ، تخبّئُ داخلها أروقةً خياليّةً مزهرةً، تردُّني جميعُها إلى عاصمةِ قلبي، و موطنِ أحلامي "بيروت". وجدتُ نفسي على متنِ سفينةٍ من عالمِ الأحلامِ تعيدني إلى موطني بلا بطاقةِ سفرٍ، أو اعترافٍ بالوقتِ. و هكذا، حملتْني غفوتي إلى شوارعِ "بيروت"، بعدما أطفأتُ شموعَ الواقعِ، و أنرتُ مصباحًا منيرًا في شوارعِ الخيالِ.

بعدَ ساعاتٍ منَ التّجوّلِ في أرجاءِ مدينتي، جلسَتْ نسمةٌ حائرةٌ على كتفي، و همسَتْ في أذني سحرًا غريبًا قادَني إلى حديقةٍ متخفّيةٍ وراءَ بوّابةٍ بيضاءَ مرصّعةٍ بالذّهبِ. وكانَتْ أشجارُ اللّوزِ المزهرةُ تحرسُها من كلِّ زاويةٍ، خشيةَ أنْ يتسلّلَ إلى داخلِها وحشُ الشّتاءِ المخيفِ. استقبلَني حارسٌ عجوزٌ بضحكةٍ عبقةٍ برائحةِ الياسمين. تقدّمْتُ خطواتٍ معدودةٍ فشدّني عالمٌ قزحيٌّ خارجَ هذا العالمِ، حجبَ ضجيجَ المدينةِ، لتحلَّ مكانَهُ أصواتٌ ملائكيّةٌ تسبّحُ اللهَ في خلقِهِ.

و بهذهِ السّرعةِ، وجدْتُ نفسي وحيدةً داخلَ حديقةٍ واسعةٍ، أطلقْتُ في ساحاتِها قلبي، حرًّا طليقًا. إنّني أقفُ على عتبةِ عالمِ الخيالِ، على مشارفِ متحفٍ طبيعيٍّ ترعرعَ و ازدهرَ في نغماتِ الطّيورِ. في هذه النّسماتِ الدّافئةِ، رائحةٌ من بخّورِ السّنينِ الغابرةِ، تحاكي صخورَ الزّمنِ الذّهبيِّ فتنهض من سباتِها العميقِ لتنثرَ عبقَ الجمالِ في الآفاقِ. و في وسطِ هذا العبقِ من السّحرِ و الجمالِ، ذرفَتِ الأزهارُ حبّاتِ النّدَى، و فاحَ من الثّرى عطرُ أهلي و أجدادي، عطرُ وطني... و على مقاعدِها الخشبيّةِ القديمةِ، جلسَتْ قصيدتي الأولى التي راحَتْ تنثرُ أشواقي في النّسائمِ الدّافئةِ، فتلتقطُها الطّيورُ الشّاديةُ، و تلحّنُها نشيدًا للسّلام. آهٍ لو كنّا نستفيقُ على سيمفونيّاتِ العصافيرِ الصّباحيّةِ، بدلًا من منبّهاتِ الهواتفِ المزعجةِ. ماذا لو كنتُ أنا طائرًا حرًّا، أغفو على نوافذِ وطني، أبني قصوري على أغصانِ "بيروت" الصّلبة، حيثُ لا يتزعزعُ حلمٌ أو ترجفُ عينٌ. هنا، في هذه الحديقةِ السّحريّةِ، يسدلُ الحمامُ ستارَ اللّيلِ و الصّباحِ، و يصبغُ الطّاووسُ شفقَ السّماءِ بريشتِهِ الخلّابةِ.

بينَ كثافةِ الأشجارِ و تمايلِها البطيءِ، تشقُّ أشعّةُ الشّمسِ لها طريقًا، فتراها تتلألأ كحبّاتِ ماسٍ تزيّنُ عنقَ الأشجارِ. و لفتني كيفَ أنَّ الحديقةَ تحتوي الشّمسَ بين راحتَيْها كلَّ نهار، و لا تتركُها قبلَ أنْ تغسلَها بمياهٍ باردةٍ. فعندَما تجتمعُ عقاربُ السّاعةِ في الشّارعِ السّادسِ منها، تسبحُ الشّمسُ في بركةِ الرّوضةِ، و تفردُ أجنحتَها الذّهبيّةَ على سطحِها الهادئِ. و مع الفجرِ، يطلُّ وجهُ الشّمسِ الذّهبيِّ ليجعلَ من سناهُ خيوطًا تعكسُ الأملَ على مرآةِ البركةِ، فتعودُ الشّمسُ إلى نشاطِها، لتحيّكَ غيومًا مبعثرةً، تقطرُ ماءَ وردٍ، يحيي الأرضَ و من عليها.

رفعتُ عينيَّ إلى السّماءِ، لعلّني أجدُ بين السّحابِ رسائلَ سماويّةً تخصّني، أو إشاراتٍ تطمئنُ قلبًا بات يفتشُّ عن خلاصِهِ في كومةٍ من الأحلامِ. فاجأني أنَّ السّماءَ هنا قريبةٌ، و أنَّ للملائكة حجراتٍ شُيّدَت على الغيمِ، تتطايرُ إليها تمتماتُ صلواتي لتُقرأَ مع طلوعِ الفجرِ. لطالما آمنتُ أنَّ في زقزقةِ العصافيرِ ترقدُ ذكرياتُ طفولتي بسلامٍ، و أنَّ في حدائقِ الحياةِ شعاعَ شمسٍ ينتظرني.

أكملتُ سيري نحوَ نهرٍ غافٍ تحتَ جسرٍ حجريٍّ قديمٍ، يتوسّطُ الحديقةَ. جثوتُ على ركبتيّ، لعلّني أجدُ في الماءِ هويّتي. و بالفعلِ، رأيتُ انعكاسَ وجهٍ نسيتُ تفاصيلَه و أنا غارقةٌ في همومِ الغربةِ و أشغالِها. وجدتُ نفسي أخيرًا، و عادَتْ إليَّ ابتسامتي التي نسيتُها هنا، في "بيروت". آهٍ أيّتها الحياةُ... لم أخبرْكِ قطُّ أنّكِ تشبهينَ النّهرَ كثيرًا... فكلاكُما لا تنتظرانِ أحدًا، و لا تتوقّفانِ عن سباق الزّمنِ بشراسةٍ. كما أنّنا لا نعلمُ منبعَكما، و لا في أيِّ مكانٍ ستصبّانِ. لا ندري حتّى متى تجفّانِ، أو بكم حجرةٍ ستضريانِ... غريبٌ حالُ الدّنيا، و الأغربُ هو حالُ الكائناتِ، التي تسيرُ مع التّيّارِ بلا وعيٍ و إدراكٍ. و إلى أين؟ اللهُ أعلمُ، فالمهمُّ أنّنا نسيرُ.

كلُّ هذهِ الأفكارِ و الفلسفاتِ كانَتْ تدورُ في صفحاتِ ذهني، و أنا أعبرُ ذلكَ الجسرَ الحجريَّ الذي يفوحُ منهُ عطرُ الماضي. اكتشفْتُ حينَها أنَّ الوصولَ إلى الضّفّةِ الثّانيّةِ يتطلّبُ منّي السّيرَ الطّويلَ، و عبورَ الجسورِ بصبرٍ و جهدٍ، مدركةً تمامًا أنّني سأرتفعُ مرّة، و أنزلُ مرّةً أخرى. أمّا لو أردتُ اختيارَ الطّريقِ الأسهل، أي السّباحةِ في النّهرِ متّكلةً على قوّتي فحسب، لكنتُ جُرفتُ مع المياهِ إلى اللّاعودةِ. و لو عبرتُ الجسرَ و سُكرتُ بالوقوفِ على قمّتِهِ بدلًا من تقبّلِ النّزولِ، لبقيتُ عالقةً في جنونِ عظمتي، بعيدًا عن الضّفّةِ. و هنا، يخطرُ في بالي قولٌ للممثّلِ الأمريكيِّ "ميكي روني": "أنتَ دائمًا تفشلُ في طريقِكَ إلى النّجاحِ."

سرقَني من دوّامةِ تفكيري، صوتُ الشّمسِ و هي تلملمُ أشعّتَها من الحديقةِ، و تسلّمُ جدولَ الوقتِ إلى القمرِ، الذي هرعَتْ أشجارُ الصّفصافِ لاستقبالِه و احتوائِه. استلقيتُ على العشبِ الرّطبِ، حتّى غفوتُ على ألحانٍ هادئةٍ، كانت تعزفُها جوقةٌ من النّجوم على قيثارةِ الملائكةِ. أيعقلُ أنْ تكونَ الموسيقى قدْ استمدَّتْ وجودَها من هذهِ الحديقةِ؟ إنّها تشكّلُ مسرحًا واسعًا، لا يوجدُ فيهِ ستارٌ أحمرُ و لا إنارةٌ مكثّفةٌ و لا حتّى مكبّراتُ صوتٍ. الكلُّ هنا يعزفُ جمالَه، و يصدرُ نغمًا متناسقًا لا يشوّشُ على غيرِهِ. الطّبيعةُ أنشودةُ حياةٍ، و مزيجٌ من الألوانِ الزّاهيةِ و الأنغامِ النّاعمةِ.

حديقتي هذهِ، أنزلَتْ جلالةَ "الوقتِ" عن عرشِهِ، و سمحَتْ لي باستلامِ الحكمِ و تغييرِ الدّستورِ. هنا، لا يوجدُ ساعاتٌ و لا رزنامةٌ للوقتِ، إنّما عرشٌ من ورودِ الحرّيّةِ، أتربّعُ عليهِ ملكةً لهذهِ الأرضِ و ما عليها. و أوّلُ حكمٍ سأطلقُهُ، يقضي بإلغاءِ الشّتاءِ و الخريفِ من قائمةِ الفصولِ، مع الحفاظِ على مطرٍ دافءٍ يطلُّ في ساعاتِ الحرِّ الشّديدِ، بلا رعودٍ أو عواصف. سأطلبُ من الطّيورِ أنْ تحرسَ السّماءَ، و تطردَ كلَّ غيمةٍ سوداءَ تحجبُ عنّي النّورَ. سأرسمُ كلَّ يومٍ لوحةَ الشّروقِ و الغروبِ، متحكّمةً بدرجاتِ الألوانِ و كثافةِ الغيومِ و لمعةِ البحارِ. سأمحو فكرةَ الدّقائقِ و السّاعاتِ من قاموسِ الدّنيا، و أعيشُ حرّةً من أيِّ التزامٍ يأسرُ حياتي داخلَ عقاربِ ساعةٍ يدويّةٍ صغيرةٍ. أمّا اللّيلُ، فلنْ أعرقلَ سيرَهُ، أو أمسَّ بقوانينِهِ، و ذلك لأنّهُ مرآةٌ لنفسيَ المختبئةِ، و ساحةُ أمانٍ لا أخافُ فيها أنْ أخلعَ طبقاتٍ من الأقنعةِ الكاذبةِ. في سوادِهِ، وجدْتُ شفاءً لأقلاميَ، و جرعةً من الإلهاماتِ و الوحدةِ.

و عندَ طلوعِ الفجرِ، أيقظني صوتُ بابِ الحديقةِ يطرقُ... منْ؟ إنّهُ قوسُ قزحٍ شفّافٍ جاءَ ليأخذَ منْ ألوانِ الحديقةِ زوّادةً تكفيهِ و يرحلُ. و بعدَ قليلٍ، أطلَّتْ مجموعةٌ من الفراشاتِ، حاملةً معها سلّاتٍ من القشّ. راحَتْ تقتربُ كلٌّ منها بهدوءٍ من الأزهارِ، خشيةَ أنْ تهزَّها أو توقظَها من نومِها العميقِ. و كعربونِ شكرٍ للحديقةِ على استقبالِها لها، لا ترحلُ الفراشاتُ قبلَ أنْ تنثرَ قطراتِ الشّذى في كلِّ زاويةٍ، لتفوحَ رائحةٌ أسمى من العطورِ الفرنسيّةِ. أترونَ كيفَ تتجلّى المحبّةُ في أصغرِ الكائناتِ، بينما نبحثُ عنها في العقلاءِ و لا نجدُها؟ و ما العبرةُ من خلقِ الفراشةِ يا تُرى؟ أوُجِدَتْ لنحبَّ ألوانَها و جمالَ تكوينِها؟ أمْ لأنّ في جناحيها دفّتي كتابٍ يعلّمُ الحياةَ؟

بالفعلِ، ما منْ أحدٍ يستطيعُ أنْ يرتقيَ إلى رتبةِ الطّبيعةِ، إلى هذهِ الحديقةِ المرسومةِ بحبرِ الخيالِ على خريطةِ "بيروت"، و دنيا أحلامي. عجيبٌ كيف صمّمَ اللّهُ هذهِ الحللَ، و ألبسَها لأرضٍ قاحلةٍ تفتقرُ إلى الحياةِ. كيفَ هندسَ الأشجارَ، و زرعَ في صلابتِها رحمةً تبحثُ عنها الإنسانيّةُ. فها هي الأغصانُ تنحني لتحملَ ثمارًا لم تذُقْ طعمَها قطُّ، و تصمدُ أمامَ الرّياحِ و العواصفِ، مضحّيةً بأوراقِها تحتَ شعارِ الإستمراريّةِ و التّجدّدِ.

في مروجِ الورودِ، لمحتُ طيفَ أمّي جالسًا على أرجوحةٍ معلّقةٍ بالسّحابِ، تلفُّها غيومٌ زهريّةٌ من كلِّ زاويةٍ. اقتربتُ منها، حاملةً قلبًا قد ثَمُل من مرارةِ قهوتي، و بشاعةِ غربتي. و هكذا، فاضَ منّي الكلامُ، حتّى فَرُغَت كؤوسُ كآبتي، و باتَ للصمتِ صدًى يسرحُ فيها.

-"لمْ أتخيّلْ يومًا أنْ أجتمعَ و إيّاكِ ثانيةً، و في هذا المكانِ بالذّاتِ... كلانا نلملمُ باقات أوجاعِنا، لنصبغَ بألوانِها لوحات الغروبِ.

- يا ابنتي، في الحدائقِ تكمنُ أسرارُ الوجودِ، حيثُ نسجْتُ لروحي التّائهةِ مأوًى يحميها. أترين كلَّ هذه الطّيورِ؟ إنّها تحملُ لي أخبارَكِ كلَّ صباحٍ و مساءٍ، و ترسمُ لكِ في السّحابِ رسائلَ مبعثرةً تطمئنُ قلبَكِ...

- لا شكَّ أنّها أخبرَتْكِ عن وحشيّةِ عالمِنا، و عن ذلك الفراغِ الذي يعيشُ في أروقةِ عمري... أخافُ يا أمّي من الفشلِ، أخافُ على أوراقِ الخضراءَ من لسعةِ الخريفِ، و على أزهاري المتفتّحةِ من أقدامِ الدّهرِ.

- الأشجارُ القويّةُ هي التي تتقبّلُ خسارةَ أوراقِها، مدركةً تمامًا أنّها مجرّدُ فترةٍ، ستمضي كما مضى غيرُها. تذكّري دائمًا أنّ الفراشةَ لا ترى جمالَ أجنحتِها، رغمَ أنّه واضحٌ للجميعِ.

- و لكنْ، يصعبُ يا أمّي على المرءِ تقبّلُ الخساراتِ، و العيشُ في دوّامةٍ من الألمِ و اليأسِ...

- أعرفُ ذلكَ تمامًا، و لكنْ لا تسلكي الطّريقَ السّهلَ، يا ابنتي... لا تدعي الصّيفَ يغري أحلامَ شبابِكِ، فما أنْ يقرعُ الزّمنُ بابَ الواحدِ و العشرينَ من "أيلولَ"، حتّى تجدِيهِ مضحّيًا بحرارةِ الشّمسِ، و نضارةِ الأشجارِ، مسلّمًا أرضًا أحبَّتْهُ إلى الهلاكِ. الرّاحةُ ثعلبٌ ماكرٌ متخفٍّ في أثوابِ الفراشاتِ. ادخلي في عواصفِ الحياةِ بلا خوفٍ، ستجدينَ النّورَ في البرقِ، و الارتواءَ في المطرِ.

- أتعلمينَ يا أمّي أنّني كسرْتُ مرايا الحياةِ، هربًا من مواجهةِ الواقعِ؟ و أنّني قد أفرغتُ الأبجديّةَ منْ حقائبي، كي أنسى اسمي و كلامي.

- آهٍ يا ابنتي، كفاكِ هربًا من الواقعِ... أنظري حولَكِ، تأمّلي كيفَ تعكسُ تلكَ البحيرةُ لونَ السّماءِ، كي تتحرّرَ منْ لونِها الشّفّافِ. تعلّمي منها سرعةَ التّأقلمِ، و كيفيّةَ التّعايشِ مع واقعِكِ، و إيجادَ طرقٍ فعّالةٍ لمعالجةِ مشاكِلِكِ. لمْ نخلقْ لنكونَ كاملين، بلْ لنعيشَ التّجربةَ الإنسانيّةَ، بواقعِها و أحاسيسِها و تجاربِها. عودي إلى الواقعِ، دعيهِ يعزفُ على أغصانِكِ الصّلبةِ، كي تصرخي أجملَ الألحانِ... عودي إلى الواقعِ، عودي، عودي..."

و فجأةً، ارتجّتِ الأرضُ تحتَ قدميَّ، و باتَتِ الحديقةُ تختفي شيئًا فشيئًا، ليحلَّ مكانَها سوادٌ داكنٌ... أَفْلَتَتْ يدُ أمّي منّي، و احتلَّ الدّنيا صوتٌ مزعجٌ مخيفٌ.

ما هي إلّا لحظاتٍ، حتّى فتحتُ عينيَّ مِنْ جديدٍ، لأجدَ نفسي في غرفةِ الفندقِ، أستيقظُ على صوتِ المنبّهِ.

عُدتُ إلى الواقعِ، و في داخلي باقاتٌ من الياسمينِ مزروعةٌ في ضلوعي، أخذتُها مِنْ أرضِ حديقتي، من ثوبِ أمّي و خُصَلِ شعرِها.

آهٍ يا حديقةَ "بيروت"، يا قطعة سما،

"فيا ليت الذي بيني وبينك بابًا يطرق

ويا ليت أطرافَ الأرض تُطوى ونلتقي."